وكانت دورانوس تغني وإيقاع البحر قاسٍ وشفّاف كالبرق، وأزرق ذلك النغم الحزين في الريح وفي صوت البحارة. تلك السفينة الشامخة تركته وعادت إلى سالونيك، عادت دون أن يبصر ثريغوراس، لكنه رأى، ودورانوس عادتْ. ربما كان ذلك قَدَرُه، أن يموت في اللحظة التي يفهم فيها حقيقة الرؤيا ويسمع صوت القلب.

ألبحر

دورانوس كانت تبحر باتجاه صقلية، محطته المرتقبة! بالنسبة له، كانت بمثابة رحلته الأخيرة نحو حياته الجديدة أو فناءه، الرؤيا أو العدمْ. كان يستلقي بإستجداء على ظهره قرب الصارية الرئيسية، يُباعدُ بين يديه كأنه يعانق الشمس، ويباعد بين رجليه كأنه يضاجع السماء. مرتخياً، مستسلماً، متلذذاً، يَصُبُّ القليل من النبيذ الفاخر في ذات الكأس الفضية، ويعطي القنينة لمرافقته لتضعها في الحقيبة. كان يمد يده التي تمسك بالقنينة ويبقى منتصباً على ما هو حتى تأتي هي، مرافقته، وتأخذها منه بالقليل من التذمر.
ثريغوراس الضرير تعوّدَ أن يفعل معظم الأشياء وحده دون أن يخطىء. فقد كان عندما يمشي، يتجنّبُ أن يعطي إنطباعاً بأنه ضرير، فكان يمسك بعصاته بشكل عادي ويحرّكها للأمام وإلى الخلف كمن يُعبّر عن نشوةٍ مثيرة أو فرح مستديم، ينثر إبتساماتٍ منفرجةٍ دائما، ويحرّك رقبته بإتجاه مَن حوله و يُحَييهم وكأنه يراهم وينظر عميقا في عيونهم. برنامجه اليومي كان يتكرر كل يوم، فيقوم أولاً في الصباح بعد تناوله الفطور بالتجوال على سطح السفينة الأمامي المخصص لذوي الشأن، مرة واحدة فقط. ثم يتوجه نحو الصارية ليستلقي في موقعه المفضّل في مقابل دفة الربّان ويبقى هناك حتى الظهيرة حيث يذهب بعدها لسريره الكامن بمحاذاة غرفة القيادة ويتناول بضع كسرات من الخبز وبضع حباتٍ من التمر ومن ثم يخلد إلى النوم. وكانت تلك المنطقة في السفينة لا ينولها إلا أولئك من المقتدرين وأصحاب المال ولم يكن هنالك الكثير منهم على متن دورانوس. فهي سفينة تجارية تحمل البضائع من وإلى سالونيك وتصميمها لم يكن مخصصاً للركاب بل لإيواء البحارة وتخزين البضائع. أما أولئك الركاب فهم يأتون بالغالب لإكتشاف مناطق جديدة لتجاراتهم أو يرافقون بضائعهم لتسويقها. البعض منهم كانوا يحضروا معهم بعض المرافقين لتسليتهم في الرحلة وتبديد بعض الوقت، والبعض كانوا مجرد مسافرين مع القليل من المتاع أو حتى القليل من الإحتكاك بالآخرين. في كل الحالات، لم تلبث الساعة بالمرور حتى يستفيق ثريغوراس وبهم بإكمال برنامجه اليومي متجاهلا معظم معطيات الرحلة وتناقضاتها حيث كان يقول لمرافقته مرارا بأن الإنسان الجاد هو من يحترم قيمة الوقت ويعطي لنفسه ما جاد منه. وكانت هي تستمع في غالب الأوقات وتهز برأسها من دون تعليق. ينهض ثريغوراس ويجلس على سريره بعد توضيبه ويبدأ بالتلفت حوله وكأنه يوجه دعوة ما للركاب لحضور حدث مهم هو وحده النجم فيه. هذه الفترة من بضع ساعات من العصر يسخّرها ثريغوراس للتخالط والحديث العام مع مجاوريه من التجار والمسافرين ويدعوهم لجلب ما يريدون من الأطعمة

والمشهيات حتى يتسنى لهم الحديث والإسترسال والتمتع بطقوس الرحلة المبتكرة. كان يحاول أن يحادث الجميع بما يتناسب وإهتماماتهم ويتفاعل معهم كأنه يعرفهم منذ أزمنة بعيدة، حتى أولئك الذين لم يكن لديهم أي علم بأي لغة كان يتكلمها فكانوا يستمعون ويهزون برؤوسهم كأنهم يدركون كل شيء يقوله! أما عن ماهية تلك الحواديت، فقد كان يتحدث عن الصيد والنساء وعن البلدان التي طاف فيها وعن مغامراته مع أصدقاءه في سالونيك وصعلكات شبابهم، وكان يبدو أن من كان حوله من التجار والمسافرين باتوا يستحلون حديثه ويحاولوا بالمثل التفاعل معه، بإستثناء البعض الذين لم يخفوا إمتعاضهم من غروره وكبرياءه حتى أنهم كانوا أحيانا يهزأون منه ويحاولوا تصغيره أمام من كانوا يستمعون له. لم تلق الكثير من الترحيب تلك الحركات فقد كان معظم أولئك المتذمرين من المراهقين والشباب الذين كانوا بالمثل يحاولون أن يجلبوا بعض الإنتباه لأنفسهم. أما هو، فلم يكن يأبه بكل ما يحدث خلف الكواليس فيستمر في حديثه وكأن شيئاً لم يكن. في ذلك الأثناء، كانت مرافقته لها من ذلك الوقت ما تشاء، وكانت تختفي من تلك الأجواء حتى المساء وتتجنب الخلطة بأحد.

في المساء، يتوجه كليهما، ثريغوراس ولوفينيا، إلى سطح السفينة مرة أخرى وُيسخّر ثريغوراس كل تلك الفترة للتأمل وللتدقيق في حالات القلب! هكذا كان يصفها وبشكل لا يدعو للتنازل، فتعود به الكرة ليستلقي في موقعه المفضّل في مقابل دفة الربّان ويبقى هناك حتى يحين موعد النوم. تعّود الركاب عليه، مع أنه في البداية، كان يأتي له بعض مستمعيه من مراودي حواديته في ساعات العصر ويطلبون منه أن يكمل قصةٍ كان قد بدأ بسردها في الماضي القريب وأدركه الوقت فلم يكمل. كان يتوتر من تلك الطلبات ويعبر عن عدم رغبته حتى في الحديث أو التفاعل وبشكل لا يوحي بأنه هو ذاته ذلك المتحدث اللبق ذو الحديث الممتع والقصص الشيقة في فترة العصر. على العكس، فقد كان يبدو فظاً ،ُمستفزّاً وُمتنفرّاً من كل أولئك المتحرشين والفضوليين، كما كان يصفهم! أمّا مرافقته لوفينيا فهي التي كانت تهتم بالموقف وتقدم أعتذاراتها بالنيابة عنه وتفسر لأول وآخر "المتحرشين" بأن ثريغوراس يرغب بأن يفعل أشياء أخرى في هذه الفترة بالتحديد ولا يحب بأن يشغله شيء آخر عن غير الذي في باله! وكانت تحثهم على عدم التعامل مع هذه المسألة وكأنها تحفظ شخصي ضدهم، بل تشجعهم بالمرور عليه في اليوم التالي بعد القيلولة كي يتسنى لهم الحديث معه وبشكل مطول، فهو حقيقة يرغب بذلك. وكمن يريد أن ينتهي يومه بسرعة في إنتظار اليوم الذي يليه، كان ثريغوراس ينتهي على سطح السفينة في إنتظار يوم آخر، وحواديت جديدة. وترافقه لوفينيا بصمت وعنفوان غريبين، وتستمر في مراقبة ما حولها بهدوء شديد.

تتمركز خلف ثريغوراس ببضع خطوات، كانت لوفينيا وبشكل عام ، لا تقترب منه زيادة على الحد، وإن فعلت، يُحِسُ بها هو ويرفع عصاته للأعلى إشارة لإحساسه بعدم الإرتياح لقربها. فتفهم لوفينيا، وتحافظ على المسافة من جديد.مع أنها كانت أحياناً تفعل ذلك قصداً، لتمتحنه، تثيره أو لتستفزه. كانا لا يتحادثا

كثيراً، أو على الأقل، لم يرهما أحد يتحادثا كثيراً لكن كان يبدو أنها راضية وقانعة بصحبته رغم أن في ملامح وجهها ونظرات عينيها كان هنالك شيء غامض لم يستطع أحد وصفه بدقة أو حتى السؤال عنه! وفي بعض الأحيان تبان عليها ملامح شرسة تعبر عن إمتعاض شديد من شيء ما خصوصا عندما كان في بعض الأحيان يطلب منها ثريغوراس أن تحضر له شيئاً يلزمه أو بأن تساعده بفعل شيءٍ آخر. لم يدري أحد ماهية تلك الأمور التي كانت تستفز لوفينيا في طلبات ثريغوراس ولكن توتر الأجواء بينهما كان له حصة لا بأس بها طوال الرحلة. في البداية ظن الجميع بأنها جارية أو خادمة لثريغوراس، ولكن وفي خضم كل تلك التساؤلات، تبين للبعض لاحقاً بأن لها اصولاً متشربكة وكان قد إلتقى بها ثريغوراس في قرطبة وعرض عليها أن ترافقه في رحلته إلى صقلية بمقابل أجر جيد وأن ينحت لها تمثالاً بحجمها الحقيقي. وكانت قد وافقت هي على ذلك مع أن هذا لم يكن كافياً ليفسر سر علاقتهما ولكن كان يبدو أن ثريغوراس قد تجاوب مع الوضع وذلك بعد أن رفضت معظم نساء سالونيك من اللواتي يفضلهن من أن يُنْحَتَ لهن تمثالاً، في ظل أن نحّاتاً ضريراً مثله سيتوجب عليه أن يتلمّس أجسادهن كي ينحت، ولم يكن ذلك بالشيء المفضّل لدى نساء القصور في سالونيك، اللواتي يهبن أجسادهن لمن هم من المفترضِ أقدرَ من ثريغوراس على النحت وأبرع منه في اللمس وأقدر على الحس! كانت لوفينيا تغازل كل من تقع عينيه عليها أو عينيها عليه! توزّع نظرات متمحّصة على من تستهويه، تبتسم، ثم تُداعبُ شعرها قليلاً وتُحرّكه مع رأسها ليهدل من جديد على ظهرها، فتبان أكتافها كالذهب العتيق، فتُشيح بوجهها للناحية الأُخرى وتستمر في الوقوف أو المسير خلف ثريغوراس. جميلةً تلك المرأةُ كانت، كنِمْرْ. عيناها مثل لؤلؤ أسود، وقوامها مثل عاج. وكان من بين أولئك المترقبين، الأخضر، هكذا كان يطلق على نفسه، ألذي كان ينظر إليها في البداية بين حينٍ وآخر! ولكن تحولت نظراته وتحقيداته الى مراراً، كملهمٍ لا حول له ولا قوة! وكانت تلاحظُ ذلك فتبتسم كعادتها ثم تعود إليها تلك الملامح الشرسة وكأنها تشيرُ لكل مريديها بأنها صعبة المنال. جميلةً تلك المرأة كانت، صافيةً كنارْ، ذي شفافية قاسية، تتحرّكُ كقطْ، وثباتها حاد كصخرة. لم ينتبه أو يستغرب الأخضر في البداية لشيء على السفينة حقيقةً إلا لهذه المرأة الأخّاذة الجمال التي ترافقُ رجلاً ضريراَ في العقد الرابع من عمره وعلاقتهما المشوبة بالمظاهر المثيرة للشكوك، وعجز حينها بأن يُبرّرَ معنى وجودها معه كالظل، أو تشبثه بها كالأمل.

لم يكن ألأخضر يعرف أن هذا الضرير ثريغوراس هو نحّاتاً مشهوراَ من سالونيك وكان قد نحت وجوها وتماثيلا بمجرد اللمس والوصف فقط. وأنّه أحياناً كان ينحت أشكالا غير مألوفة! ولكن متناسقة التصميم، حتى أن البعض باتوا يشكّون في مصداقيته وحقيقة قدراته. وكان ثريغوراس قد توقّف عن النحت بعد أن سمع عن نبتة تُعيدُ البصر، حتى للذي فقده منذ الولادة. فقضى بما يقرب السنتين وهو يتجوّل في أعلى البلاد وأقاصيها يسألُ عن هذه النبتة حتى تيقّنَ من عجوزٍ مصري كان يعمل طبيباً لدى احدى العائلات

الثرية في أثينا بأن هذه النبتة تعيش في إحدى مناطق صقلية الجبليّة الوعرة التي لم تطأها إلا أقدام الرعاة وأغنامهم، ووصف له شكل العشبة: "ورقها أسود، وزهرها بنفسجي قاتم، وعيدانها زرقاء. تُنتِجُ بصيلةٍ واحدةٍ كل سبعة عشر عاماً وتُنبِتُ أول زهرةٍ بعد خمس سنوات في أوائل الخريف بين الصخور. وعندما تجدها، عليك أن تستنشقَ رائحتها في ثلاث ليالٍ، وبعد ذلك، عليك أن تقلعها من الجذر وأن تأكل بصيلتها، ثم إصنع من زهرها وأوراقها وعيدانها حساءاً تشربه لمدّة ثلاث أيام أخرى في الصباح وعند الغروب. بعد ذلك، سيكون بمقدورك أن تراقب شروق الشمس في اليوم السابع."

انا ألأخضر

سألتها في باديء الأمر عن هذا الرجل وماذا تفعل هي برفقته، أذكرُ أنها أحسّت بفضول شديدٍ من سؤالي وساد وجهها شيءٌ يشبه عزلة نسرٍ وحاجته للصيد، فالتزمت الصمت! ولم تجب على سؤالي إلا بعد بضع أيام. كنت حينها أُحدّقُ في فراغ الأفق على حافة دورانوس حيث جاءت وبدأت في الحديث عن ثريغوراس، هكذا، ومن دون مقدمات! بقيت صامتاً، حتى أحسست بأنها تتكلم عنه وكأنها لا تتذكّرُ شيئاً عن علاقتها به. لم تساعدني لباقتي فتأففتُ قليلاً، وإذا بها تنظرُ إليّ بعد أن كانت وكأنها تتحدث إلى البحر وذات الفراغ وبانت علامة هجوم على جسمها وتدفّقت إلى وجنتاها دماءٌ وكادت أن تنفجر غضباً، فتوقّفت عن الحديث واستنفرت، ثم ذهبتْ!

هي لوفينيا التي جعلتني أُحسُّ بالأشياء، كل الأشياء! أنا ذلك المسافر الهش الذي يبيع ويشتري، وتتلخّصُ حياته بكلمة واحدة .. تاجرْ. أنا ذلك المتجول الذي لم يكن يعرف كيف يبدأ حياتاً حقيقية، وتلخّصت بداياته بالإنبعاث من البحر، إلى البحر! ولوفينيا، تلك الساحرة تعرف جيداً كيف تهاجم القلب، سألَتْني مرة، وكانت تؤشّرُ بإصبع يدها على ملابسي وترفعه من أسفلٍ إلى أعلى وبسرعةٍ كبيرةٍ كأنها تسخرُ من شكلي: "لماذا هي خضراء ملابسك طوال الوقت، ألا تُحبُّ الألوان؟". فأجبتها بجدية وكبرياء: "يسمّونني الأخضر بهران، يبدو أنني أحببت اللون الأخضر منذ الصغر، وعندما عملت في التجارة إخترت أن أكون مميّزاً في كل شيء حتى في ملابسي فذاع صيتي وعمّت شهرتي من الهند الى المغرب ثم الأندلس، وسُمِّيتُ بالأخضر. ولأن والدي كما قيل لي، كان قد رأى في عينيَّ عندما وُلِدّتُ ملامح إنبهارٍ، سماني "بهران"، فأنا بهران الخيزراني، فأبي كان تاجر خيزران. وذلك إسمٌ، أطلقه علي بعضٌ من رفاقي في التجارة لا تحبباً بل لدواعي سخرية. ولكن أبي أصبح من أنجح تجّار المغرب وتوارثت عنه فطنته وحبه للشعر، و ..."

ضحكت هي، وبقيت ملامح وجهها غير مبالية وقاطعتني وقالت: "مُخطئٌ أنتْ، ولا تعرف من أنتْ."

صُعِقتُ عندما قالت لي هذا وكنت قد ظننت أن سرد القصة بهذا الشكل سيبهرها كما تُبهَرُ باقي النساء فيتراكضن على كسب ودّي والتمتع بسماع بقصصي ومغامراتي، وأحسستُ بالحاجة لتأديبها أو حتى

ضربها، ولكن ولسبب ما، بقيت صامتاً، مذهولاً، أحاول أن أطفئ ناراً في أحشائي تكاد تحرقني. أما هي، فبقيت متوازنة، تلك التي تعرف متى تخافُ وكيف تُخيفُ وقالت:

- أحتقر مخاوفكم، أنتم الرجال.

وصمتت لبرهة، وبدأت نبرتها تتغير، ونظرات عيونها وتوتر جبينها باتا يعطيان إيحاءاً بالصدامية، ثم تابعت:

- وليس سراً أنني أغازلكم، كلكم!

ومرت تلك اللحظة سريعا كالبرق وكانت مليئة بنظرات الإغراء والشهوانية المستحيلة:

- ولكن ذالك لأنني لم أجِد رَجُلي بعد، وإن وجدته ، لن أغازل غيره، أما البقية، فهم ليسو إلا أشباحاً باهتة.

وصمتت مرة أخرى لثانيتين أو ثلاث وأردفت:

- مثلك.

وكانت تنظر إلي عينيّ مباشرة، تراقب ملامحي بحذرٍ شديد، وبينما كان الدم يتدفق إلى أذنيّ، إبتسمت إبتسامةً توحي بالشفقة، وكأنها تبدي إنطباعاً بات مألوفاً لديها عندما تصف إحتقارها لمخاوف الرجال وتهزيئهم. وفي الوقت الذي بدا لي أنّها كانت تُجيب على معظم الأسئلة التي كنت أنا نفسي أخجل من أن أسألها،أحسست عندها أنني في حضور أحدٍ لم أشهده من قبل! برغم أنني في البداية أحسست أنّها كانت تحاول أن تُلَقِّن الرجال درساً قاسياً، ولأسبابٍ لم تكن تبدو مُبَرَرة، لسبب أو لآخر. ولم تبدو ليّ الطريقة مألوفة على أية حال،ولكنني شعرت أنّ لهذه المرأة باعاً آخر في الرجال وفي التعامل مع الأشياء بصفة عامة، وأن لها فلسفة خاصة لم أقوى على فهمها حينذاك، ولم أستطع حتى إخفاء إستغرابي وعدم ثنائي، على الأقل هكذا كان يبدو لي. وبانت التقلبات في ملامح وجهي كعين الشمس، حتى مع تلك المسافة النقدية التي حاولت أن أحافظ عليها تجاهها، وتجاه الموقف برمته! أمّا ثريغوراس، في تلك الأثناء، فقد نفذ صبره من كثرة ما سأل عن مرافقته وبدأ بالمناداة عليها وبصوت عالٍ حتى نفذ صبرها هي، فنفضت نفسها من على حافة المركب ورفعت شالها الملون إلى أعلى وبرفق شديد أعادته على ظهرها ثم شَكَلَتْ جانبه السفلي إلى يسارها. قدّمت لي التحية وعيناها تبرقان! وإبتسمت إبتسامة رقيقة هذه المرة وبادرت في المشي الهوان نحو ثريغوراس. في الرغم أننا كنا محاطين بالكثيرين من الركاب، لم أحس بوجود أحدٍ حولنا في الفترة الوجيزة التي قضيتها مع لوفينيا. ولكن عند مغادرتها، أحسست بعيون الرجال والنساء سوية يأكلون ما تبقّى فيّ من عزّة نفس وكبرياء، وإنتابني إحساسٌ غريبٌ بالوحدة والتشوش وبسرد الشعر!

إستهجنت نفسي أمام نفسي وحاولت طرد تلك الأفكار والمشاعر من كينونتي وقررت أن أحاول تجنب الخلطة مع لوفينيا في المستقبل، وقلت لنفسي أنها وعلى كل حال سوف لن تتذكر من أنا في اليوم التالي، وستمر من أمامي وكأنها تراني ولأول مرة! فمن أنا لها؟ في الغالب لن تعاود الكرة هي نفسها، تفعل ذالك

مع كل الرجال. على الأقل هكذا ظننت! أمّا عن فضوليّ وعن غريزتي كتاجر بأن أختلط بالناس وأتعرّفُ على عاداتهم فشعرت بالحاجة إلى كبتها بل والهروب منها في هذه الحالة، فلم يكن في الحسبان أن تستحوذني حكايات الناس بالأخص تلك التي لا تصب بالنهاية في مصَّبٍ مألوف لا يبعث بالطمأنينة بل بالضياع في تفاصيلٍ معالمها مشوّشة ولا تُعَمِّقُ الشعور بالإستقرار، وبالطبع لا تأتي لي بالمال! فقررتُ تجاهل فضولي والإبتعاد عن تلك المرأة قدر الإمكان.

إحتجبتُ عن تلك المنطقة لبضع أيامٍ، وظننت أنه إذا ما عدت للتسكع فيها بعد ذلك سيكون كل شيء على ما يرام، فلن تتذكرني هي، وأعود أنا لأستمتع بوقتي مرة أخرى، فقد غدت تلك المنطقة مفضلة لدي أيضاُ! وكان لي ما شئتُ، على الأقل لبضع أيامٍ أخرى التي تلت حالة إختفائي. كنت حينها جالسٌ مع بعض المسافرين اليونان اللذين قدموا من إحدى الجزر اليونانية إلى سالونيك رغبة منهم في العمل في صقلية، حيث إزدهرت آنذاك التجارة والعمران وباتت تستقطب الحرفيين من كل قطبٍ وزاوية. ثريغوراس ولوفينيا كانا على الجهة الأخرى للسفينة حيث لم أعد أتواجد وإذا بالجموع الأقرب لمقدمة المركب يتلفتون للناحية الأخرى ورؤوسهم تتحرك في إتجاهنا، كأنهم يراقبون أحداً يمشي بإتجاهنا. لم يكن أحداً من الركاب يجلب إنتباهاً كهذا غيرها هي، وأحسستُ بأن شيئاً ما على وشك أن يحدث. توقفنا عن الحديث العابر وبات كل منا يترقب مقدمة القارب وساد هدوء حذر بإستثناء همس النساء ومحولات الرجال تهييء أنفسهم لمن سيمر بعد لحيظة. ولسبب ما، بدا لي أن معظم الرجال قد إنتابهم ذات التوقع بقدوم لوفينيا حيث بانت على وجوههم تعابير الوسامة واللباقة كأنهم سيستقبلون أميراً من أمراء بلادهم. النسوة لم يرتحن لتصرفات رجالهم والبعض منهن بدأن بالتذمر وبحث أزواجهن على ضبط النفس وإحترامهن. حاول بعض الرجال مراعاة زوجاتهم والبعض الآخر لم يأبهوا. وكانت تلك اللحظة التي شهدت ظهورها تمشي بإتجاهنا قرب مقدمة المركب. بعض الرجال لم يقدروا على إخفاء ملامح السرور والشباقة والبعض باشروا بالإنشغال في أشياء غير منسجمة مع اللحظة وكأنهم إختلقوها للتو كي يتجنبوا تأنيب زوجاتهم، اللواتي كن يتأففن من توتر وشباقة أزواجهن وردة فعلهم. أما أنا، فلم أكن على طبيعتي كما كنت أرجو! وعلى رغم أنني كنت وحدي ولم يكن برفقتي أحد، إستعرضت ذاكرتي ذلك الشعور الذي إنتابني قبل بضع أيام عندما تدفق الدم إلى أذنيّ وبتُّ أحس بالصغر كلما نظرت إلي تلك المرأة الصعبة! وأحسست بحرارة الطقس وبرطوبة البحر وكأنني لم أطوف العالم من قبل أو لم تطأ قدمي الكثير من المراكب الصغيرة منها والكبيرة! كادت أن تنفجر من كثر الحرارة أذنايَ وكدت أن أصاب بالغثيان من كثر ما راوحت في مكاني وبالغت في ردة فعلي وربما خوفي أو حتى رغبتي. اللحظة الحاسمة كادت أن تبعثني في رحلة إلى أمكنة جديدة، وتقترب هي كالنسمة المتمرجحة بأضواء المصابيح، ولم يكن ذلك المساء ليُنسى، ولم تكن تلك الدفقة لتقدّر بثمن! وها هي، تقترب، وعيونٌ تلتقط مشيتها الغراء، وتقترب، ثم تكاد أن تمرُ، وقوامها مستقيم كالصارية، ونظراتها

هذه المرة خلت من أي غزل أو ألفة، وإذا بخطواتها تشير لقدومها إلى جهتي كأنها كانت قد خططت مشيتها خطوة خطوة كي تنتهي في ناحيتي. عرفت حينها أنها تستهدفني، وبدأ قلبي يخفق بسرعة فائقة تذكرني بخفقان حب قديم خسرته، وكانت اللحظة، كل اللحظة أمامي، كالحلم أو الحقيقة، لا أدري! ربما كالإحساس بنبضةِ حياة أخرى، أراها ولا أراها، أو بأملٍ كان يتعبني أن أبقيه حياً من خوف أن يقتلني!
وحاولت تذكير نفسي بضرورة كبت فضولي وعدم المساومة على عزتي وكبريائي، وبدا ذلك الخيار يمتحنني و للمرة الأولى، وأحسست أن ما بين قدرتي على التجاوز وبين أستعدادي لمواجهة اللحظة يكمن لُغزاً ما، يُحدّد ماهية ضعفي وعدمية موقفي.
وصلت إليّ وصوت حذائها الخشبي المزركش يترك صدى لعالم آخر لا أعرفه، ووقفتْ بجانبي ووجهها للبحر، بينما تفرّق من كانوا حولي وكأنهم أرادوا أن يتركوا لنا مساحة صغيرة لنكون، أو لا نكون! وأنا ما زلت أركن ظهري على حافة المركب المتوحش في عنفوان اللحظة، وغدا وجهها على يميني وكل منا بات يحدّق في الجهة المعاكسة، وعينانا تراقب العينانِ، وصوت تراطم الموج بالمركب بات يصرخ في وجوهنا بقوة وكأن إرادة الريح هي إرادتنا، وسمائنا. وكانت لنا تلك اللحظة كعالمْ!
- هو ذلك الذي وجد النور.
قالت ولتؤكد أنها كانت تخاطبني أنا ولا أحد غيري كان جسمها وكأنه يرمي الكلمات بإتجاهي وعيناها تحركتا لتحدقا في أفقٍ خلف أفقي:
- هو ذاك الذي قوة الحياة فيه تصيغه، هو ثريغوراس الذي يريد أن ينحت أكثر من شكلٍ واحدٍ لحياته.
صمتت قليلا ثم نظرت إلي نظرة سريعة تحثني فيها على الوقوف المباشر أمامها والنظر في أفق عينيها بدلا عن التحديق في تلك الآفاق التائهة فينا أو بنا! في تلك المرحلة أدركت أن جسمي كان يميل لإتجاهها مع أنني كنت مستمرا بالنظر إلى الجهة الأخرى، مع إستراق بضع ومضات من وقفتها على بعد خطوة واحدة مني. تحركت قليلا وأدرت بوجهي نحوها وبت أنظر في عمق عينيها وفي إبتسامة أشرقت بها كحرير ثمين ناعم تحت رذاذ بعيد خلف عوالم ملوّنة.
- إلتقيت به في طريقنا إلى قرطبة، حيث كانت محطتنا المقررة لجمع بعض المال، جمعنا القليل منه في المحطة السابقة ما يكفي للوصول إلى قرطبة، وللمزيد من لهو قرطبة، فقد كانت مغرية لأناسٍ مثلنا نحن الغجر، نعرف ما يريد الناس، وهم يعرفون ماذا نريد نحن! أما هو، فقد كان يوم وصولنا يمشي على حافة الطريق التي تؤدي إلى المسجد الكبير، وكنا نحن منقسمين إلى جزئين، جزء يركب العربة، والجزء الآخر يمشي على جانبها. لمحته من بعيد يمشي بشكل مميز! أثارني وقوفه المستمر وأحيانا جلوسه على الأرض ليعبث في بعض الأشياء ويلتقط بعضا آخر ليتلمسه ثم يعاود المسير. فعل ذلك ثلاث أو أربع مرات ما بين توقف ومسير حتى أصبحت عربتنا بمحاذاته. كنت أنا حينها من ضمن أولئك الذين يمشون بجانب العربة

وعندما إنتبه لقربنا، رفع عصاته إلى أعلى وثبّتها في الهواء ونظر ناحيتنا وابتسم، وكأنه يلقي التحية! ظللت أراقبه ولم ألحظ أنه كان ضريرا، إلا بعد أن سبقناه بحوالي مئة ذراع حيث تعثّر بشيء ما ووقع على الأرض على وجهه تماماً وطارت عصاته إلى الجانب الآخر للطريق فبدأ يتلمس الأرض بتوترٍ ويفتش عليها، وفي تلك اللحظة وبشكل عفوي طلبت من السائق كوران أن يتوقف وينتظرني،فركضت نحوه، رغبة بمساعدته، وأمسكت بذراعه محاولة رفعه عن الأرض ومتخيلة أنه سيتقبل المساعدة، لكنه تذمر كثيرا وأخذ يبرطم بلغة غير اليونانية لم أفهمها ويحرك يديه بشكل عشوائي وبعصبية شديدة ويرتعش كمن يفقد شيئا عزيزا ويحس بأنه مذنب لفقدانه. إبتعدت قليلا عنه وتوجهت نحو العصا والتقطتها ووجّهت مقدمتها بإتجاه جنبه الأيمن عساه يحس بها فيمسكها ويهدأ من روعه. أمسك العصا في اللحظة التي وجّهت العصا نحوه وسحبها من يدي بعنفٍ ورفعها إلى أعلى كما فعل من قبل، ثم نهض ومدّ يده اليسرى أمامه وبدأ بالإلتفاف حول نفسه وعصاته مرفوعة إلى أعلى بيده اليمنى كمن يتأهب للقتال! بقيت واقفة مكاني دون حراك، وصوت كوران من خلفي يستعجلني. لكن ما لبث أن جاء ثريغوراس ناحيتي بسرعة واصطدم فيّ وكاد أن يطرحني أرضاً. وفي تلك اللحظة هدأ قليلا وأنزل عصاته المرفوعة المتوجهة نحو أنفي بهدوء وأخذ يمررها عليّ كمن يكتشف ولأول مرة الجسد الأنثوي، ضحيته أو نشوة أنتصاره. كان يدقق بالتفاصيل الصغيرة في جسمي وكأنه يتعرف بعصاته عبر ثقب صغير على ملامح عالم جديد. مدّ يده اليسرى نحوي وأخذ يتلمس كتفيّ ثم شعري وتضاريس وجهي. توترت في البداية ولكنني أحسست بعدها بشعور آخر أشبه بإنسياب الماء الفاتر عندما يتسلل إلى الجسد ويغمره دون ان يرتعش فطابت ليّ الفكرة! ولم أتحرك! كوران من الخلف ما زال يصرخ ويهدد بالمضي إلى وجهته،أعطيته إشارة بأن يذهبوا هم وأنني سألحق بهم بعد قليل! أحسّ هو بتحركي وإبتعد إلى الخلف قليلاً، وبدأ حينها كوران بالتحرك وانتبه هو لصوت العربة وهدير من هم حولها ووضع عصاته على جانبه في مكان خاص بدا لي كخُرج السيف، ومدّ يده اليسرى وإستكمل إكتشاف وجهي هذه المرة كريح خبيثة تتأكد من لمسها لكل أجزاءه. ووضع يده اليمنى على كتفي مرة أخرى وبدأ بالإنزلاق كحبرٍ على جليدْ، فوق كل ناحية من جسمي وبيديه الإثنتين، وبنعومة شديدة. بدأ يتلمسني بطريقة لم أشهدها من قبل! فإرتخيت وإستسلمت كمن تهب نفسها لمضاجعة إسطورية نادرة وإجتاحني إحساسٌ متناقض ما زلت أحاول أن أفهمه منذ تلك اللحظة! بقيت لوفينيا مذهولة هكذا، حتى توقف هو فجأة منتفضا من مكانه وسألها بحذرٍ بالكاستيلية:

- من أنتِ؟ أنت غجرية أليس كذلك؟

- لوفينيا، هذا إسمي ... لوفينيا.

وتحيّرت كثيرا عندما سألني عن إسمي بلغة أعرفها، فقد سمعته للتو يتفوه بكلمات غريبة لم أعرف لأي لغة تنتمي! وتفاجئت بسليقته وحدسه عندما عرف بأنني من الغجر! صوت العربة ربما أو صريخ كوران!

- تذهبون إلى قرطبة؟

- نعم.

- للهوِ أليس كذلك؟

- كذلك! ولكن ما دورك أنت، ولِمَ تسأل؟

- وما دوركِ أنتِ، ماذا تفعلين بالظبط؟

- أرقص وأغني وأقوم ببعض الحركات البهلوانية برفقة الدب غوركي.

- وماذا تفعلين عند اللهو الحقيقي؟

إستفزني السؤال ونبرته التسلطية وقلت: ليس شأنك.

- هل لك أهل ... هل هم أهلك؟

- نعم ولا

- هل هم غجر أيضاً؟

- نعم ولا

- أنتم الغجر منبوذين أليس كذلك؟

وأحسست عندها أن كل هذه المحادثة لم تعد تهمني بشيء وأن هذا الرجل مشاكله أكثر من أن آبه بها فقلت له: "كذلك". قلتها بسرعة أملة أن تنتهي المحادثة وأعاود المسيرفنظرت حولي أتفحص الطريق ولأعد نفسي لمغادرة المكان واللحاق بأهلي وإذا به يتحرك بإتجاهي وبلهجة ملحة ومستهزءة قال: ماذا تعني "كذلك"!! أأنتِ عبدة لأحد.

- لا، فيّ من الحرية ما يكفي لمئة مثلك يا هذا!!

- ها ... وما هي تلك؟

- ما تلك ماذا؟ ماذا تعني؟

- حرية!!

- آه، هممممم ... أن نفعل ما نشاء، متى نشاء!!

- أوَ تقتلون أيضا متى تشاؤون؟

- لا لا هدىء من روعك، لا نشاء من القتل شيئا، ولا نتحرش بالأبرياء ... سؤالك فظ!

- ومن هم أولئك؟

- أولئك من؟

- ألأبرياء.

- أنت مثلاً، وفظاً أيضاً!

- وما أدراك أنني بريء، أو فظ!؟
- عيناك تقولان، وأنت معذور أفلا تراهما!؟
- البراءة جهل.
- وأحيانا الجهل براءة، أين بصيرتك يا عاقل؟
- البصيرة ليست حاجة.
- البصيرة لها أسرار.
وبتذمر قال: أنت خبيثة.
- وما الخبث؟
- تشويه الحقيقة.
- أو حاجة للبقاء.
- أنتِ مشوهة.
- أنت عبدْ.
- عبدٌ لذاتي.
- وأنا حرةً في ذاتي.
- نحن متشابهان إذاً، أنا أنحت في الحجارة وأنت في الحياة، وأحيانا حياة المرء حجارته ...
- أنا أرقص الحياة وأغنيها، نحن متشابهان في رقصتنا الحجرية ولكن ليس بحريتنا، فأنت ما زلت عبداً لرؤيتك ولست حرّاً في فهم بصيرتك.
- أنا سأرى، وسأبصر ما في العالم، كل العالم!
- كثير فيك ليس في العالم، بصيرتك ترى النور فيك، وعيناك ترى النور في الشمس، وفي ذاتك شمس أخرى.
- عيناي هي حاجتي للبقاء نحاتا.
- الإستسلام ضعف، والعيون ضرورية لحياتك ولكنها ليست مبررا لقتلك.
قال ثريغوراس وكأنه تذكّر للتو أن هنالك سبب آخر لحديثه معي فقال:
أتأخذونني معكم إلى قرطبة؟ في هذه الحالة أقدر على التحدث معك أكثر وربما يحالفني الحظ وأتمكن من أن أنحت منك تمثالاً عظيماً.
- لا أستطيع التصريح بشيء كهذا بالنيابة عنهم، ولكنك تستطيع أن تأتي معي وحدي، وتستخدم أنت حصتي في العربة، ستسليني فلسفتك الملتوية!! وربما نحتك! كم ستدفع لي؟
- أفليست عربتكم كلكم؟

- لي حصة فيها وكما قلت تستطيع أن تجلس على العربة عندما يحين دوري، بينما أمشي أنا بجانب العربة، ولكن قبل كل هذا ماذا سأجني أنا من كل هذه الحكاية، غير طبعاً سخافتك ... ولا أعرف ماذا أيضاً!

- ألن يغضبوا؟

- آه، يغضبوا من؟ هم؟ وما شأنك أنت؟ ... على كل حالٍ لا، لن يغضبوا، وليس من حقهم، اتدبر أمري جيداً.

- أهذا يعني أنهم لن يعترضوا على كوني سألمس جسمك واتحسسه في كل الأماكن حتى ... كل الأماكن ... تعرفين ما أقصد!

- هذا جسمي أنا يا صديقي، ويبدو أنّ عليك أنت أن تفهم هذا قبلهم! ولكن ما لي وكل هذه الحكاية أسألك مرة أخرى، ها؟ ماذا تريد أنت وجسمي ما لك أنت بي أتظنني رخيصة يا هذا؟ ثم لم نتحدث بالتفاصيل بعد فعليك التروي أولاً.

- حسنٌ حسنٌ، أردت ألتأكد فقط من أنك تتعاملين مع جسمك بهذا الشكل، سأنحتك منك تمثالا، هذا كل ما هنالك، هذا كل ما هنالك!

- لا أفهم ماذا تعني، أتظن أنني فاجرة؟ وماذا تظن نفسك انت؟

- لا لا لا، لا تسيئي فهمي أرجوكِ، فهذا آخر ما أرجوه في هذه اللحظة ولكنني إستغربت من أن قومك يتقبلون الوضع وكأنه أمر عادي، لقد كدت أقتل في الماضي بعد أن وجدت نفسي في وضع مشابه لهذا دون الأخذ بالحسبان كل ما قد يترتب على هذه العلاقة و ...

- لحظة لحظة، أنت ما زلت لا تفهم الأمور جيدا، هم قومي وعائلتي، وأنا لم أقل بأنهم يتقبلون هذا الوضع، كل ما هنالك أنني وعلى مسئوليتي الخاصة سآخذك معي إلى قرطبة في مقابل بعض الأشياء التي لم تتحدد بعد وتبعاً لهذه الإتفاقية سوف تكون أنت بحمايتي. فدعنا من الحديث عن كل هذا فأنت وعلى كل حال لن تضاجعني بل ستنحتني، وعلى ذكر النحت لِمَ لا تنحت أمرأة تعرفها أو تعرفك هي على الأقل؟ لماذا تضع نفسك في وضع محرج كهذا؟ وعليك أيضاً أن تفكر بأشياء أخرى لتعويضي، أن تصنع تمثالا لي لا يكفي، مجرد لا يكفي، فعليك التفكير بشيء آخر!

- آه، لدي إمرأة يا صديقتي ولكنها تعيش هنا (ووضع يده على صدره بقوة)، ألم تدركي ذلك بعد!؟ أنها ما زالت هناك ... حتى أنني أتخيل أحيانا أنها ولدت هنا! أنا لا أنحتك أنت أنت بل أنحت أمرأتي، وسأعوضك لا تخافي، سأعطيك بعض النقود أيضاً، اتظنين هذا سيكون كافيا لك؟

- كم من النقود ستعطيني، بعض النقود؟ بعض النقود قد تعني أي شيء، أتعامل بالأرقام ... كم بعض النقود تساوي؟

- حسنٌ حسنٌ، يا إلهي، ما هذا؟ ... أنت ستحميننني وتنهبيننني حسنٌ، ولكني وكما تعلمين أنني هنا، في هذا المكان الذي لا أستطيع القول أنه من أظرف الأماكن التي سافرت إليها وأنني وبهذه الحالة أستطيع القول يا عزيزتي أيضا أنني قادر على حماية نفسي، فسكاكيني حادة وأولها في عصاتي وقادر على أن أكون قاتلاً عند الحاجة، ولكنكِ بالطبع ستساعدينني حتى أصل قرطبة، على الأقل في هذا الإتفاق، وحتى تلك اللحظة فلننسى قليلا قصة النحت، فقد أغير رأيي قبيل الوصول! وعلى كل حال لم أمارس النحت منذ سنتين تقريبا وعلي أن أتنشط قليلا قبيل البدء بمشروع جديد، ولكن على هذا فقط سأكافئك بمئة درهم، أيناسبك هذا؟

- حسنٌ، ولا تسألني مرة أخرى، لقد وافقت على مجيئك معنا ولكن لم أفهم ماذا تقصد بأنني سأساعدك! أساعدك بماذا إذا كنت تتدبر أمورك بنفسك؟ فعليك أن تعلم مسبقاً بأنني لن أكون لك بخادمة، حتى مع كل هذا المال الذي تقترح مكافئتي إياه، وعليك أن تفهم أيضا بأن هذه العلاقة لا تعني شيئاً بالنسبة لي غير أنني أفعل هذا كجزء من عملي، أنحن على إتفاق؟ وماذا عن قضية النحت؟ أليس هذا هو السبب الرئيسي الذي من أجله بدأ الحديث بكل هذه المواضيع وماذا عن ...

- نعم نعم، سنصل للحديث عن قضية النحت عاجلاً أم آجلاً ولكن ومن أجل أن نبرم أتفاقا مجديا لكلينا، نحن على إتفاق: أنتِ لستِ بخادمة، وهذا جزء من عملك، تساعدينني فقط بالأمور اليومية التي أعجز عن مزاولتها لكوني ضرير، وهي ليست بكثيرة على كل حال، وعندما نصل لقرطبة نبرم إتفاقا آخر للمرحلة التي تليها، أنحن على إتفاق؟

- حسنٌ، نحن على إتفاق، ولكن قل لي ... أتقتل حقاً، أهنالك سكين بهذه العصا؟

- ولِمَ لا؟

- ولِمَ نَعَمْ؟ لم أفهم ماذا تعني ولم لا؟ أهنالك سكين؟ ومدت يدها لوفينيا محاولة التعرف عن قرب على عصاته وإذا به يحس بها ويبتعد قليلا من أمامها وقال: لأنك أنت ستقتلين إذا قضت الحاجة أيضاً، أفلن تفعلي؟ وعاد كليهما للوقوف بإعتدال وحيادية وكأن الإتفاق الذي تم التوصل إليه بات ساري المفعول!

- لا أدري، الأمر ليس بهذه السهولة.

- ومن قال أنه بهذه السهولة؟ أنا ضرير، وأيا كان سيهرب مني بسهولة شديدة!

- تقتله بماذا إذاً، بلسانك؟

- لا أدري ربما أساومه على عيناه! لست جيدا بقتل اللسان!

- تقتله بقلبك إذاً؟!

- لست حجراً إلى هذا الحد!

وسكتت لوفينيا وارتبكت ولم تدري ماذا تقول، وباشرت في تغيير الموضوع!

- ألن تأتي إلى العربة؟

- نعم نعم هيا بنا.

- لكن قل لي لماذا أنت ذاهب إلى قرطبة، ماذا لك في قرطبة؟

- آه ... نعم .. سألتني ... مررت في الأندلس لأرتاح قليلا من عناء سفر طويل ولجناء بعض المال، سأبحر بإتجاه سالونيك في النهاية لأقضي بعض الأشغال ثم أعاود السفر بإتجاه صقلية.

- ولماذا صقلية، أكنت في صقلية؟!

- لأن هناك تعيش نبتة الغارونيا، نبتة ستعيد إلي بصري، هذا ما عرفته من عجوز مصري، أظنه كان صوفياً او طبيباً، لا أذكر! هو قال لي بأنه رأى النبتة بأم عينه وشهد تأثيرها على أناس بمثل حالتي.

- أتفتش عن هذه النتبة منذ زمن بعيد؟

- منذ زمن قريب، سنتين تقريباً.

- الهذا لم تنحت شيئاً طيلة السنتين الماضيتين؟

- نعم نعم، ما كنت قد نحته طيلة حياتي هو ما كنت أتأمل في لمسه، أحتاج أن أرى الآن، وأحتاج أن أنحت ما أرى.

- الم ترى وتلمس ما فيك لتنحته؟ تستطيع نحتي وانت بهذه الحالة، اليس كذلك؟!

- نعم نعم، لقد نحتُّ أشياء كثيرة أعرفها وأشياء أخرى لم أعرف ما هي، أعني أنها مجرد أشكال لم يفهمها أحد، حتى أنا لم أفهمها! أظن أنني لم أفهمها! لم أعد أعرف!ولكن لا أظن أنها فيّ، ربما! لا أعرف ذلك ايضاً! لم أعد أعرف!

وبحساسية شديدة وبصوت يكاد يفتقر للصوت وكأنها على وشك أن تسأل سؤالا شفافا أو مطمئناً سألتهُ:

- أتفهم كل شيء فيك؟

- تقريبا كل شيء.

ولم يستغرب من السؤال!

- يبدو لي هذا غير معقول، لا أحد يفهم تقريبا كل شيء!

- أتسخرين مني؟ أنت تسخرين مني، يا لهذا الزمن الـ..

- لا لا، لا أسخر منك، بل أحاول أن أفهم منك كي أُعَلّمك شيئا!

- وماذا عندكِ أنت لتعلميننني؟!

- عندي ما أظن أنك تسعى إليه!

- النبتة؟

- لا، بل عيناك، لقد رأيت بعيناي كيف تتلمس الجسد وكيف تنتفض الروح باللمس، أظنك لا ترى عيناك.

- آه، فإذا أنت أيضا تملكين عيناي، كم أنا سعيد الآن، أفتتكرمين على هذا الفقير ثريغوراس وتعطيه عيناه، إذا تفضلتِ!!؟

- تأخذها مني بعد أن تعرف أن النبتة لن تغنيك عما فيك.

- أتتحدين بصيرتي وما سأنحته بعد ما أبصر؟

- نعم، ثريغوراس، هذا أسمك أليس كذلك؟

- نعم نعم، وتتحدينني وأنت لا تملكي شيئا لتخسريه؟ هذا ليس بتحدي منصف!

- أخسر أنني وجدتك ولم أنقذك، فإن لم أقبل التحدي طالما كنت أعرف أنك لن تنحت شيئا حتى بعد ما تبصر، وأقبل التحدي لأنني أعرف أنك تقدر أن تنحت شيئا مهماً بعد أن تفهم أن لبصيرتك عينان غير أعين بصيرتك، وأظنك تفهم ما أقصد!

- أذا تقبلين التحدي؟

- نعم، أقبله.

- وتأتين معي إلى صقلية؟

- ومن تحدث عن الذهاب معك إلى صقلية يا أخي!

- ألم تعترفي للتو بأن هذا الإتفاق اكثر بقليل من كونه مجرد إتفاق؟

- لا أفهم ماذا تعني!

- ألم تقولي أنك قد رأيت بعيناك كيف أتلمس الجسد وكيف تنتفض الروح باللمس!؟

- أنت خبيث!

- نعم أعرف أنني خبيث، فلما لا تأتين معي إلى صقلية؟!

- دعني أفكر ... ربما!

- ربما أكون بحاجة لك ... سأدفع لك أجرا جيدا، ماذا تقولي ... ها ... ها؟

- توقف توقف عن هذا، دعني أفكر، فلنصل إلى قرطبة أولاً وبعدها سنرى، إذا كنت فعلا بحاجة لي، ملعونٌ أنت!

- ماذا تقصدين؟

- أقصد لا شيء، هيا إلى العربة.

المجهول المنبعث الأخضر

أحب أن أراقب شروق الشمس على دورانوس وهي تبحر آخر يوم دورانوس!

ذلك الثريغوراس يبحث عن العشبة ولوفينيا خلفه، وأنا في عالم آخر، أبيع وأشتري في الحياة دوائر من نار، آه يا لوفينيا ... أكان يجب أن تسردي القصة! أكان يجب أن أتحرش بك فتتحدثين عن مخاوفي، أنا ذلك الممل الأخضرالمزركش! أكان يجب أن أكون فضولياً فتتحول فضوليتي إلى قصتي! أكان يجب أن تشيري إلي كإنسان ضائع وأن يؤلمك هذا أكثر مما يؤلمني؟ أتظنين أني ضعت في عالم ليس عالمي؟! لا أدري ما

هو العالم يا لوفينيا بعد الآن، ولا أدري أي عالم كان يجب أن أضيع فيه! سأذهب أنا، وتذهبين أنت، وربما أقف هكذا مرة أخرى على حافة دورانوس وأخاطبك وأراك كما أراك الآن في البحر لينة، قاسية ومضيئة، وأسرد لك الشعر، ربما تحبينه وربما لا! ربما ألتقي بك مرة أخرى وربما لا! ولكن سأذكر يا لوفينيا أنك أنت من قلت عني وعن الحياة ما لم أعرف، ربما أعود إلى نفسي الآن ... وربما إليكِ ... أو لا أعود! سنصل إلى صقلية، فإستفيقي يا من تنامين قرب صارية البحر البارد ... قرب هواء قاس وجاف مثلك، ولا تتركي ثريغوراس، دعيه ينحت، وأرقصيني أنت في ذاكرتك فربما أغدو شيئا في يوم من الأيام يستدعي منك ذكري ... سوف لن أعرف بعد الآن ماذا سأكون من الآن!

ألتحول

ثريغوراس يتأهب للنزول من السفينة إلى بلدة باليرمو، والتي تقع على الجهة الغربية من الجزيرة ويحكمها العرب منذ أكثر من مئتي عام. لوفينيا لم تكن كعادتها في ذلك اليوم، فقد كانت تمشي وكأنها تفكر بشيء ما يذهلها. الشمس تكاد تغيب وطيور النورس تحلق فوق دورانوس كأنها تعرفها، وربان السفينة ينادي منذ ساعاتٍ ويسأل عن الأخضر بهران بنفسه وُيعلم الجميع بأن يخبروا الأخضر، إن رأوه، أن عليه أن يشرف على نقل بضائعه المكدسة في أسفل السفينة لأن دورانوس ستغادر الميناء عائدة إلى سالونيك بعد أسبوع، وإلا فسيتم الإستيلاء على بضائعه ومن ثم بيعها!

لم يرى أحدا الأخضر ينزل من السفينة ولكن أحد البحارة إدعى أنه كان قد رأى الأخضر عند الفجر وكان واقفا عند حافة السفينة عندما جاءته تلك الفتاة الغجرية التي ترافق الرجل الضرير وبقيا يتحادثان ويتصارخان حتى تهيأ له أن أحدهما سيقتل الآخر! وأردف البحار أن الأخضر كان يثير الشفقة! فقد كان يبدو عليه أنه كان أحيانا يتوسل وأحيانا يجهش بالبكاء حتى أنه ولأكثر من مرة بات يلطم نفسه بشدة،كمن كان شاغفا بها وبحب مستحيل! هكذا قال البحار وقال أنه لم يره بعد ذلك فقد ذهب للنوم حينها والأخضر كان ما زال يقبع مع الغجرية، ولكن البحار إدعى أيضا أن الغجرية كانت تحاول مرارا أن تنهي حديثها مع الأخضر وكانت تقول له أنها ستذهب إلى النوم، والأخضر ظل يحاول مماطلتها...

ألقبطان أمر الجميع بالنزول من السفينة إلى المرفأ ووجه تعليماته لجزءاَ من البحارة بالنزول إلى البلدة. أما الجزء الآخر فكان عليهم البقاء لليوم التالي كي يحرسوا السفينة والبضائع التي فيها. ويستمر الوضع هكذا حتى تغادر السفينة عائدة إلى سالونيك من جديد محملة بضائع جديدة. ثريغوراس كان من أول النازلين إلى البلدة، وفي الوقت الذي وطأت قدماه الأرض أخذ يدور حول نفسه ويتلفت ويحرك عصاته وينادي على لوفينيا، كأنه حان الوقت لكسر حاجز الصمت الذي غدا مفروضاً على علاقتهما قبيل مغادرتهما لقرطبة. كانت لوفينيا خلفه تماما وتنظر إليه وتبتسم، كانت تعرف وتدرك أن ثريغوراس

سيحتاجها الآن فعلاً وأكثر من أي وقت مضى، خاصة أن الكثيرين ممن إلتقوا بهم كانوا قد أكّدوا أن عشبة الغارونيا تعيش فعلاً في جبال صقلية وتبان معظمها عند أسفل الجبال الصخرية البعيدة والتي لا يصلها إلا رعاة الأغنام. وكانت الرحلة بالنسبة لثريغوراس تنتهي هناك، لتبدأ حياته الأخرى بعد ذلك! بدأت لوفينيا تمشي باتجاهه بسرعة ومدّت يدها اليمنى بخفة وحضنت يده اليسرى وبدأت تسير بسرعة أكبر محاولة سحبه خلفها. لم يستوعب ثريغوراس ما يجري في باديء الأمر وبدت على ملامح وجهه إشارات تذمر، وتصلّبت شرايين رقبته وكأنه يشم رائحة كريهة أو يقرف من شيء ما. أما لوفينيا، فكانت تضحك وبالغت في الضحك عندما رأته مرتبكا ومشوشا حتى بدأ هو نفسه يتقبل الأمر تدريجياً، كأنه أحس بالحميمية وبشفافيتها تجاه هواجسه على الرغم من إنتقادها المستمر له والذي كان يستفزه كثيراً. فتقبّل الفكرة تدريجياً وبدا يتأقلم مع إيقاع لوفينيا ودفقتها الجديدة وسارا معاً، يضحكان سوية وبحرية عفوية .. ولأول مرة!

وصلا إلى النُزل الصغير في ضواحي بالميرو عند منتصف الليل، نُزل السيدة سيلفيا. كانا متعبين ويحتاجان للنوم خاصة أن راعي الأغنام برونو يعيش في منطقة وعرة تتبع لمحافظة أخرى ولا ينزل إلى المدينة إلاّ بالشتاء ليبتعد وأغنامه عن برد الجبال القارس، فيبيع جزءاً منها ويُبقي على الجزء الآخر حتى الربيع ليذهب به إلى الجبال من جديد. كان ضروريا أن يذهبوا إلى تلك المنطقة التي يرعى فيها برونو أغنامه بأسرع وقت ممكن لأن الشتاء كان على الأبواب وبرونو لا يصبر طويلاً في الجبال في مثل هذه الظروف، فالشتاء قارس، والحياة هناك تزداد صعوبة كلما إشتد البرد. إستقبلتهم السيدة سيلفيا بشغف شديد، لم يكن هناك في النزل إلا زائر متجول يدعى إدريس، هادئا كان ذلك الإدريس همست لهما سيلفيا بأنه من العرب الباحثين عن المغامرة! مشت أمامنا سيلفيا إلى الغرفة المحاذية لغرفة إدريس، الغرفة الكبيرة، هكذا سمتها وأشارت أنها الغرفة الوحيدة في النزل التي بها موقدة أخرى، غير تلك التي في غرفة الإستقبال. ألغرفة بسيطة كانت، مساحتها معقولة، كبيرة بشكل مبالغ فيه بالنسبة لسيلفيا ولكن حالتها جيدة وموقدتها أفضل ما فيها. أما عن سريرها الوحيد فقد أعطى شعورا بالتوتر الحذر للوفينيا، مع أن ردة فعلها لم تكن بتلك الحدة التي بات ثريغوراس يتوقعها منها ولكنه ولتجنب حدوث صدام جديد توجه نحو الموقدة متلمسا وهج النار رافعا رأسه للأعلى كمن يبحث عن دفءٍ ليضمه لصدره. جلس على الأرض بجانب الموقدة، وبدت لوفينيا متوترة وكأن شيئاً يدور بذهنها! ثريغوراس بدأ يرتخي من كثرة التعب والمشي الطويل وبدت أطرافه وكأنها تنزلق من مكانها وإحمرّت أذناه وبات يذوب في دفء اللحظة.

قالت لوفينيا بهدوء شديد على غير عادتها وهي تجلس برخاءٍ على الأرض مقابل ثريغوراس وبالجانب الآخر للموقدة:

- أين وضعت التمثال، لمَ تدعني أراه أو حتى المسه؟

قال ثريغوراس ببرودٍ دون أن يبدو عليه الإستغراب، وكأن ذلك الدفء زاد من قدرته على السماع وضاعف حساسيته للأشياء ومن عبثيته:

- تركته في منزل العائلة، في سالونيك، لا أحب أن أعرض أعمالا فنية ناقصة.

وماذا ينقصه؟

- عيناكِ.

وبإستغراب شديد قالت لوفينيا: أفلم تنحت العينان؟!

- بلى، نحتُّ العينان وهم مقفلتان.

- لماذا؟

- ربما أسلوب إحتجاج على شيء ما! وربما لأنني لا أستطيع أن أحس شكل البؤبؤ، وربما لأني لا أراه! لقد أجبرتني على النحت قبل أن أبصر، ماذا تظنين؟ وكان هذا على عكس ما إتفقنا عليه.

لم تحاول لوفينيا الجدال معه هذه المرة وقالت له بطريقة توحي بتفهمها وتأكيدها على إحترام هواجسه:

- ستراه، وسترى ثريغوراس.

وبتاملية لم تشهدها لوفينيا بثريغوراس من قبل قال:

- نعم، آمل أن أراه.

- أمل أن ترى كل شيء ثريغوراس.

-أتعنين ما تقولين؟ أم أنك ترغبين في العودة إلى قصتك تلك؟!

- أي قصة أخرى ثريغوراس؟ أليس من أجل قصصي "تلك" بقيت معك؟

وتلفت إليها ثريغوراس وبنهمة ثاقبة قال:

- لأجل ذلك فقط لوفينيا؟ لا أظن!

إرتبكت لوفينيا قليلا وتحركت وتململت قليلا وكأن ما قاله ثريغوراس كان له أثرعزيز في نفسها، دون رغبة حتمية في الإفصاح عن ماهية الأمر! أحس ثريغوراس بشفافية من غدت رفيقته وبعزة نفسها وأدرك أن شيئاً ما يعجبه يدور في خلدها، ولتلك اللحظة، وبغض النظر عن ماهيته، كان يبدو مستعدا للحديث معها برقة أكثر، على الأقل بالمقارنة مع تحدياته التقليدية لها، ولكن أيضا بنية إستدراجها فقال:

- محقٌ أنا لوفينيا أليس كذلك، ألست أنا بمحق؟

- أنت محق ثريغوراس نعم، أنت محق ولكن لك حق، ومنك حق وفيك حق، ولكن لا يكفي بأن تكون محقا، هذا لا يكفيني أنا على الأقل.

لم يرغب ثريغوراس بأن يأخذ الحديث منحى آخر غير مرغوب فيه على مشارف لحظة قد تكون لا تنسى، وبهدوء لطيف وبتوسل متواضع قال لها:

- فلندع هذا الحديث جانبا لوفينيا ودعينا لا نفسد جمال اللحظة.

ونهض من مكانه وتوجه إلى السرير وجلس على حافته وقال:

- تعالي إلى جانبي لنرتخي قليلا علنا نخلد إلى النوم بسرعة! ووضع يده اليمنى على حافة السرير مشيرا إلى مكان رغبته في جلوسها وطبطب برفق على المكان كأنه يهيئه لجلوسها عليه.

- لماذا بجانبك!

- هنالك سرير واحد لوفينيا، عاجلا أم آجلا سننام كلانا عليه، ثم أنني بحاجة إلى وجودك بجانبي أكثر من أي وقت مضى، أنا بحاجة إليك و ...

تحركت لوفينيا بصمت من مكانها وتوجهت نحوه، وإختلطت الأمور على ثريغوراس فلم يعد يعرف ماذا يتوقع منها، إستلقت إلى جانبه على السرير بقوة ولوهلة، ومن ثم ما لبثت أن نهضت لتجلس على حافة السرير ووضعت يديها على ركبتيها كمن ينتظر فرجاً وقالت:

- ما كل هذا ثريغوراس، أأنت تهيّء الأجواء كي تضاجعني، لم تقدر على ذلك من قبل وأنت تعلم ذلك جيداً، ما الذي سيغير النتائج الآن؟

- أنا؟!! لا لا، لقد أسأت فهمي، لم أقصد بل أقصد نعم أريد لكن لم يكن هذا قصدي عندما سألتك.

إبتسمت بنعومة متناهية وقالت بهدوء:

- أعرف.

وساد صمتٌ بارد، وتبسمت لوفينيا في الخفاء مرة أخرى وقالت: أتريد أن تضاجعني؟

صمت ثريغوراس قليلا، ربما خجلا، أو خوفا، ضمته لوفينيا إلى صدرها بقوة وأخذت تقبله بشهوانية أصيلة لم تشهدها هي نفسها من قبل. وبكينونتها، نفحت فيه إيمانا أقوى بذاته لم يكن حتى من ضمن حساباته، وتضاجعا حتى إنطفأت نار الموقدة، وإشتعلت نيران أخرى كثيرة ... في كليهما.

في صباح اليوم التالي، للمفارقة، كان يبدو على ثريغوراس التعب والإنتعاش، فبدا متكلماً أكثر من عادته وبات يسأل سيلفيا في غرفة الإستقبال عن كل ما يجول بخاطره: من أين أتتْ، وكيف إنتهت بها الدنيا في مثل هذا المكان البعيد عن الحضارة، وأين زوجها، ومن يساعدها، وهل لها أقارب،وأين هم وماذا يفعلون وأسئلة تقنية أخرى كثيرة وأحياناً مملة عن شكل المكان من الخارج والداخل وعن الألوان وتضاريس المنطقة وما إلى ذلك!! وعندما تبدأ هي بالوصف الدقيق والمتعطش عبر مواكبة أسئلته الفضولية المتتالية كان يقاطعها ويقول لها بأن لا داعي لمثل هذا ألوصف الدقيق! ويردف بأنه عاجلاً أم آجلاً سيكتشف المكان هو بنفسه وسيتمكن من الحديث عنه ووصفه بدقة مماثلة وكأنه يعرفه منذ زمن بعيد، كونه سيبصر

بالطبع! وكان يقول لها هذا بإثارة وحيوية شديدتين ويشير بأنه وفي غضون ساعات أو أيام سيغدو هو مثل الطفل الصغير الذي ما لبث أن تعرف على حواسه وبدأ بإكتشاف العالم من حوله بشغف وفضول. سيلفيا كانت تبتسم برقة شديدة وتتوقف عن الحديث والوصف جامحة حاجتها للحديث مع أيا كان خاصة عندما يبدو واضحا بأن الحديث بات يأخذ منحى أحادي الجانب. وعندما تستمر حالة صمتها لأكثر من دقيقتين كان يرجع لأسئلته التقليدية عن كل شيء يخطر على باله. وإستمر به الحال على هذه الشاكلة لنحو الساعة، وبالتحديد عندما إنضمت لوفينيا للجلسة شبه العائلية والقت بصباحٍ مميز بصوتٍ ذو نغم عذب وقالت لثريغوراس:

- أنت إنسان جديد الآن أليس كذلك؟

خجل ثريغوراس من السؤال وبان عليه الإرتباك وقال وهو يحاول جاهدا تملك توتره وليعيد نحت اللحظة كب يبان على وجهة شيءٌ آخر:

- نعم نعم، أحس بذلك وأحس بأن اللحظة الحاسمة آتية في أي وقت الآن ويا لتلك اللحظة كم إنتظرتها وكم أخذت من طاقتي وعملي، اللحظة آتية يا لوفينيا آتية وكم أنا شاكر لك أنت على كل ما فعلتيه من أجلي، حقيقة، أنا جداً شاكر لك.

- لا داعي ثريغوراس، هذا عملي أيضاً، وبات وقت الحساب قريباً ... وعلى فكرة، بالنسبة لموضوع طاقتك وعملك، أليست منحوتتك الأخيرة، أو منحوتتي بالأحرى، كانت قد أرجعتك لمزاولة عملك وكسرت بعض الحواجز التي كانت تعيقك، أو تعيق عملك؟ من أين جلبت إذا تلك الطاقة التي مكنتك من النحت مع انك كنت قد قلت لي في قرطبة بأنك لن تنحت شيئاً قبل أن تجد الغارونيا وأن المنحوتات القادمة ستكون قمة أعمالك، أفلم يكن على هذا الأساس الذي قررت أنت أن تنحتني بعد أن تبصر؟ لم قررت أن تنحت لي تمثالا قبل ذلك؟ ألوقت قد حان لتجيب على هذا السؤال ثريغوراس، حقيقةً، أريد أن أعرف ما الذي غير الأمور، وماذا حصل في سالونيك! أريد أن أعرف، ألآن أريد أن أعرف، لا بعد قليل، ولا بعد ساعات أو أيام كما كنت تقول للسيدة سيلفيا." وفي ذلك الأثناء، إنسحبت السيدة سيلفيا من مجالسة كليهما وبإشارة من جسمها وبإبتسامة مليئة بالإعتذار بدأت تمشي إلى الخلف ثم إستدارت بعد أن أصبحت بمثابة خارج حلقة النقاش، والتي لم تكن مهتمة بأن تكون جزءاً منها.

- تقصدين الآن وأنا ما زلت ضريراً؟ أنت التي أجبرتينني على النحت قبل أن أبصر، لا تقولي غير ذلك! على كل حال يبدو أنك كنت تستمعين جيدا لمجمل حديثي مع سيلفيا ويبدو أيضا أن شيئاً ما قد أزعجك مما قلته للتو لكونك وقبيل لحظة صغيرة كنت تلقين الصباح علي كمن ينثر نورا فوق نور، ما الذي قلته وغير كل معالمك في هذا الأثناء؟ ألأنني قلت أنني أحس بأنني أنساناً جديداً، أهذا يزعجك لهذا الحد؟ أم ماذا؟ ألأنني لم أنتظر لأبصر حتى أنحت لك تمثالاً، أقصد أنحت منك تمثالاً؟

- بالظبط ثريغوراس، لأنك لم تنتظر، لقد نحت لي تمثالا، على الأقل هذا ما كنت مرارا أحاول أن أشير إنتباهك له، وما زلت لا تريد أن ترى. ألا تدرك ثريغوراس؟ لقد نحتني في سالونيك لأنك رأيتني، وهذا كان يكفي، فقد صرت أنت ذلك الإنسان الجديد عند تلك اللحظة، نحاتاً للرؤى وليس للأشكال. هذا لا يمنع أن تصبح إنساناً جديداً آخر بعد قليل، ولكن ذلك الإنسان الذي تركته في سالونيك هو الذي رآني، وهو الذي أراه، أتفهمني ثريغوراس؟ ويحزنني أن أتركه خلفي بعد كل هذا، فقط يحزنني ... لنذهب الآن ثريغوراس، علينا الذهاب، هل وضّبت كل ما تحتاجه للرحلة أم تريد مساعدتي بشيء؟

- وضبت كل حوائجي، وحوائجك أيضاً، كنت في إنتظارك في غرفة الإستقبال ولم أرد إزعاجك، لذا بدأت بتسلية نفسي بالحديث مع السيدة سيلفيا، ظريفة هذه السيدة أليس كذلك، السيدة سيلفيا؟

- نعم ثريغوراس ظريفة جداً، مع أنك لم تدع لها الفرصة بالتحدث ولم تستمع لما كانت تحاول قوله، مراراً، ولكن نعم، لطيفة لكونها لم تنافسك على نشوة اللحظة ولم توجه لك حديثا فظا كحديثي معك، ظريفة جداً! هيا بنا هيا، سيأخذنا النهار إلى الليل ونحن وافقين هنا كالشحمة والنار هيا!

- لا تقولي هذا، لسن كالشحمة والنار بل كالشحمة والعسل، هذه مجرد نوبة، وستزول! ستزول.

وصلا منطقة الرعي الخاصة في برونو عند موعد الغروب في اليوم التالي مشياً على الأقدام. لم يتحادثا طوال الطريق، بل كانا يتبعان الطريق الترابية بدقة وصمت غريبين. تمشي لوفينيا في المقدمة وتمسك بيده اليسرى وتراقب قدميه باستمرار خشية من أن يتعثر بشئ. ولأول مرة، كان ثريغوراس يسّلم خطواته لغير ذاته.

ظهر برونو في ذات المكان الذي كان من المتوقع أن يكون فيه، كان في العقد الخامس من العمر، داكن البشرة، قصير القامة، شعره أسود طويل، ذو جسم قوي، ولحية تعطي إيحاءاً بالشر. لم يأبه لإقترابهم منه، ولكنه عندما باتوا على بعد بضع أمتار منه مدّ يده اليسرى مشيراً لهم بالوقوف، توقفت لوفينيا في الحال وبدأ ثريغوراس بالإستفسار عن الوضع وهو الذي كان قد بدأ بالثرثرة ثانية قبيل إقترابهما منه كما فعل ذلك الصباح مع السيدة سيلفيا، فضغطت على يده لوفينيا كإشارة له بالتوقف عما يفعل أيا كان! والهدوء والتحلي بالصبر. سألهم برونو عما يريدون بصوت لا يعطي إيحاءا بالترحيب بهم بينما كان يحدّق بلوفينيا وينظر إلى محاسنها بشهية شديدة ولا يخفي إشتباهه بثريغوراس والذي كان يتململ في مكانه ويحرك رأسه بطريقة تساعده على توجيه أذنيه لإلتقاط ما يمكن أن يحدث في اللحظات الحاسمة القادمة! لم يفهم برونو، ولم تجب لوفينيا! بل كان ثريغوراس سبّاقاً بشرح القصة كلها لبرونو وطلب منه في الفور بأن يساعده مقابل أجر جيد وبدأ بالحديث عن نفسه وعن إنجازاته في النحت وما إلى ذلك حتى قاطعه برونو مدركاً الوضع وفي غضون لحظات، طلب من كليهما بأن يتبعاه!

لم يفهم ثريغوراس إذا كان برونو قد قبل عرضه أم لا فسأله:

- أنت برونو أليس كذلك؟ هز برونو رأسه بثقة وعنفوان، كأنه فخور بأن أسمه بات يتردد في أماكن أخرى لم يسمع حتى هو بها، ولم يفهم ثريغوراس رد برونو فسأل لوفينيا عما يحدث وطمأنته هي وقالت: هذا هو الرجل اللذي نبحث عنه، من غيره؟ هو الوحيد في هذه المنطقة وبالغالب أنه هو ذات الشخص الذي نريده أن يساعدنا! وأكدت له بأن برونو قد هز برأسه موافقاً وأنه يبدو أنه قد قبل بالعرض.

بدأ الإثنان في المشي خلف برونو، ولم يبدو أن الرحلة كانت لها معالم واضحة كأين أو متى ستنتهي أو حتى كيف!

- دورانوس ستبحر بعد خمسة أيام، أفتظنين أن لدينا الوقت الكافي كي نبحث عن العشبة؟ خاصة وأن هذا البرونو لا يعطينا إنطباعاً بأنه يرغب بالتحدث إلينا عن أي شيءٍ، يبدو لي أننا غدونا نرعى الأغنام معه بإتجاه لا يعرفه إلا هو، هذا لا يريحني لوفينيا، هذا لا يريحني، قد يكون هذا البرونو محتالاً يرغب بأن يأخذ ما لدينا ويقتلنا ويتركنا للحيوانات كي تأكل بقايانا، من يدري؟ وربما يكون هذا ليس برونو الراعي، وربما هو راعي آخر تواجد في هذه المنطقة بالصدفة فأرض الرعاة واسعة، وربما يكون هو قد قتل برونو وأخذ أغنامه وربما..."

وعند تلك اللحظة كادت أن تنفجر لوفينيا من شدة الغيظ والعصبية وقالت له وهي تكاد أن تفقد أعصابها:

- كفى كفى، يا إلهي ما هذا تذكرني بالأخضر، تمالك نفسك يا رجل، هذا هو برونو، هذا هو، هو ذات الوصف الذي وصفه الكثيرون حتى الآن، بإستثناء طبعاً فظاظته التي لم يذكر أحد عنها شيئاً! ولك الحق بالشك في هذه الحالة، لا أنكر، لكن لا تخف، أنا هنا، وسأكون قاتلة عند الحاجة.

ثم أعادت نفس الجملة ببطء شديد وبإستهزاء وكأنها تذكره بالحديث الذي دار بينهما في قرطبة وبأسلحته العاتية في عصاة الخشب والتي كان ما يلبث أن يهدد بها أيا كان، ومن دون مقدمات ولا مبررات!

- قاتلة عند الحاجة!

- سأسأله أنا إذاً.

وبصوت عال، يكاد يكون صراخاً سأله ثريغوراس

- إيها البرونو، إذا سمحت ... سفينتنا سترحل بعد خمسة أيام، أتظن أن لدينا وقتا كافيا لنبحث عن العشبة؟

- لقد قلت لك أنني وافقت على ما تريد، فلا حاجة لإزعاجي بأسئلة لا حاجة لها.

- لم تقل لنا شيئاً يا رجل، وأنا لا أقصد بأن أزعجك يا صديقي لكنني قلق قليلا، والسؤال ليس سخيفاً بل الوقت يداهمنا وأخاف من أن أضطر إلى العودة إلى سالونيك من دون العشبة إن طال الإنتظار، فالسفينة القادمة ستأتي بعد أربع أشهر، وأنا لا أريد أن أبقى هنا طيلة هذه المدة، أريد أن أرجع إلى ورشة عملي وأبدأ بالنحت من جديد، أفليس من حقي أن أقلق قليلا؟

- نعم نعم من حقك، لكن من دون أن تزعجني، ثم نحن لم نبدأ في البحث بعد، سنذهب إلى الكوخ أولاً وغدا في الصباح الباكر سأذهب أنا وأحضر النبتة لك وأنت تفعل بها ما تشاء.

- يجب أن آتي معك.

- لا حاجة، أنا أعمل لوحدي، القليلون يعرفون مخابئها ولا أريد أن يتعرف على طريقها أحد، على الأقل ليس عن طريقي أنا، سأجلبها مع ترابها في الصباح،وتقرر أنت كما قلت لك للتو ماذا ستفعل بها، وتقرر أيضا أين تريد أن تقضي أيامك الثلاث مبصراً.

- عفواً ، ماذا تقصد؟

- ماذا أقصد بماذا، لا أقصد شيء.

- أعني ماذا تقصد بأيامك الثلاث؟

وبدت على ثريغوراس ملامح التوتر

- ألا تعرف، ألم يقولوا لك كل أولئك الذين سمعت منهم عن النبتة؟ كل هذه التفاصيل ولم يقولوا لك؟ يا لأولئك المتعجرفون، دائماً أضطر أنا للتفسير، ولا أحب أن ألعب هذا الدور . . .

- أعرف ماذا يا هذا، أية تفاصيل تتحدث عنها قل؟

وبدا ثريغوراس غاضباً وإضطربت حركات جسمه وبدأ يرجف، كأنه أحس بأن هنالك شيئاً ما خفياً بات يهدد آماله ويشرذم تدفق اللحظة. وعندها قال برونو وكأنه يخاطب نفسه

- إذاً لا يعرف.

وأردف:

- ألغارونيا تسمح لك بأن تبصر لثلاثة أيامٍ فقط، ترجع بعدها لما كنت عليه، ولا داعي بأن تحاول أن تستخدمها مرة أخرى، فلن تنفع.

توقف ثريغوراس عن المسير مذهولاً، كأن جبالاً من الصمت الثقيل هوت على رأسه وأخذت معها كل بقايا الكلام وإنفعالاته المتأملة بما كان ممكن أن يكون أول حلم جديد، وبداية إدراك جديدة. أما لوفينيا، فقد كانت تستمع بحيادية مع أن وجهها كان يتحرك مع كل سؤال وجواب. لم تدري ماذا تقول أو ماذا تفعل، تلك التي لم يعد هنالك شيئاً يفاجئها بسهولة، الصدمة كانت أيضا من نصيبها، فصمتت هي أيضاً وحاولت معاودة المسير وإرغام ثريغوراس على التحرك والتشبث بما أتى من أجله، ولكنه كان متمسماً في مكانه منقطع الأنفاس وكأن قدرته على متابعة المسير قد نضبت، وكأن شيئاً في داخله قد إنطفئ. إستمرت لوفينيا في محاولة جر ثريغوراس واللحاق ببرونو الذي لم يعطي إنطباعاً بأنه يأبه بأي شيءٍ يحصل خلفه، فقد إستمر في المسير وبنفس الوتيرة السريعة الواثقة. ضغط ثريغوراس على يد لوفينيا بقوة حتى كاد أن يفتتها فشعرت بالخوف وصرخت في الحال على برونو وطلبت منه التوقف. لم يتجاوب معها برونو فهددته في الحال بأنها ستلغي الصفقة المبرومة بينه وبين ثريغوراس وأنها ستريه من الضرب المبرح ما لم يره من قبل إذا لم يتعاون. تباطأ برونو تدريجياً وإلتفت إليها بهدوء وإبتسامة واثقتين ثم توقف ومد يده في الحقيبة الصغيرة المعلقة على خصره وأخرج منها قطعة من الخبز الناشف وبدأ يأكل بطريقة إستفزازية ويراقب أغنامه ويضرب بحجارته الصغيرة عليها كي تتوقف عن

المسير وتباشر في الرعي بينما كان يشير بالصفير إلى كلبه من أجل اللحاق في بعض الأغنام التي ما زالت مستمرة في المسير. إرتخت يد ثريغوراس القابضة بقوة على يد لوفينيا، وأخذ نفساً عميقاً. خوفاً من أن تذهب الصفقة أدراج الرياح، قال برونو:

- كان بمقدوري أن أقول ما قلت بعد إستلامكم النبتة أو بعد إستلامي للنقود، لكنني كنت أميناً معكم وأخبرتكم بحقيقة الأمر فآمل أن تكون الصفقة ما زالت سارية المفعول.

نظرت إليه لوفينيا نظرة متسائلة شكوكة وبينما كان ولا زال هو يتجنب الحديث المباشر معها ويوجه أنظاره بإتجاه أغنامه. قالت وبطريقة لا تدعو للمزاح:

- إسمع يا هذا البرونو.

قالت إسمه بنفس الطريقة التي كان يستخدمها الأخضر فانتبه ثريغوراس للأمر وبدأ يصغي.

- أنت لم تعلم أنه لم يكن لدينا علم بأن النبتة مفعولها مؤقت، فلا حاجة للمناورات والخدائع، أنت ستساعدنا على جلب النبتة وتنتهي مهمتك في تلك اللحظة، أهذا مقبول؟

- نعم، في الصباح سأجلب النبتة لكم كما إتفقنا وتفعلون بها ما تشاؤون.

- حسنٌ.

وهمست في أذن ثريغوراس: أما زلت تريدها؟ ولم يجب على سؤالها.

- هل نستطيع الاستمرا في المسير الآن؟

قال برونو بتذمر فأجابته لوفينيا على الفور وبقوة:

- نعم نعم، إبدأ في المسير أنت ونحن سنكون هنا خلفك.

بدأت تضغط هي على يد ثريغوراس وحثته على المسير. ومن دون سابق إنذار قال ثريغوراس وبصوت خافت: نعم أريدها، ولكني بدأت أحاول الآن أن أحدد شيئاً أو مكانا أنا في أمس الحاجة بأن أراه، وهذا صعب للغاية يا لوفينيا، فلا أحس بأنني بحاجة أن أرى صقلية، ستطاردني ذكرى أليمة أينما ذهبت بعدها، ربما آخذها إلى سالونيك، أو إلى أثينا، أو ربما إلى قرطبة من جديد، نعم نعم، أو لا ... لا، ربما أخذها إلى الصين، فقد سمعت عن الصين كثيرا، ومثير أن أرى الصين أليس كذلك؟ نعم نعم، ربما آخذها إلى الصين وأبصر هناك، أو ربما إلى مصر مرة أخرى ففي زيارتي الأولى لم ...

ولاحظت لوفينيا تشوشه وإضطرابه وحزنه وبصوت هامس فقاطعته وقالت:

ثريغوراس، أنا لم أضاجعك بالأمس كما ضاجعت غيرك من قبل، أنت ليس شبحاً بالنسبة لي ... على الرغم أنك أحياناً تحيرني، وأحيانا أشعر أنك إله هارب، لكنني أشعر الآن أيضا بأنك أنت رجلي، و....

- لماذا تقولين هذا الكلام الآن لوفينيا، ما الذي خطر على بالك هكذا فجأة ومن دون مقدمات؟!

- لا أدري ثريغوراس، لا أدري ... ربما لأنني لم أعد أحس بأنني أريد منك أجراً، أفليس بات واضحاً لك بأنني لا أملك أسبابا كثيرة للتجوال معك ؟! يبدو ان هذا هو بالفعل الوقت المناسب لذكر مثل هذه الأشياء، أي وقت قد يكون أفضل من هذا قل لي؟

- من كلامك يبدو أنني كنت أصغي لنزواتي كثيرا، أليس هذا صحيحا؟

لم تجب لوفينيا فتابع هوالحديث مشددا على السؤال:

- أليس كذلك؟

- نعم، لم تكن ترى في ذاتك كثيراً، أحيانا تسمعها وتحسها، وأحيانا تنحتها، أبدأت تفهم الآن؟

- لا أدري لا أدري، لم يعد الأمر واضحا كما كان!

- كما كان؟ متى كان؟

ساد صمت شديد، وتابعوا مسيرتهم حتى وصلوا إلى كوخ برونو، والذي لم يبدو أنه كان مستمعاً للحديث الدائر بين ثريغوراس ولوفينيا، وكأنه لا يعنيه الأمر.

بقي لدورانوس أربعة أيام، وفي الصباح الباكر، خرج برونو ليحضر النبتة ولم يقرر ثريغوراس ماذا سيفعل بها بعد إستلامها، أو أي"مكان" يريد أن يراه! برونو لم يغب طويلاً، بل عاد عند الظهيرة ومعه كيس كبير يربطه على ظهره، جاء برونو ومعه النبتة، هكذا كان يبان من عيناه! وثريغوراس ولوفينيا كانا جالسان ينتظرانه في الباحة الخارجية للكوخ!

- ها هي. قال برونو.

أجلبتها؟ سأل ثريغوراس بفتورٍ يوحي بعدم جاهزيته لإستقبالها.

- قلت لك ها هي، ألا تسمع؟

- نعم أسمع

- أفلست فرحاً

- نعم .. أنا فرح ها ها ها لكن لا داعي أن أرقص أمامك لأريك فرحي أليس كذلك؟ فدعني وشأني أرجوك، وضع النبتة هنا.

وأشار على مكان غير واضح في باحة الكوخ! ثم مدّ يده على حقيبته وتناول حقيبة أخرى صغيرة جلدية ومزركشة وأعطاه حفنة من المال وبرونو يترقب بشغف خجول، كأنه لا يريد أن يعطي إنطباعاً بالجشع. وبينما أهم ثريغوراس بدفع أجرة برونو كانت لوفينيا تراقب بتأمل شديد ملامح ثريغوراس وفي الوقت الذي تمت به الصفقة نهضت بشكل سريع ملفت للنظر كي ينتبه إليها ثريغوراس وقالت: سأرقص أنا .. وأغني أيضاً.

بدأت لوفينيا ترقص بهدوء وتغني لحناً مألوفاً كان يحبه ثريغوراس ويحب أن يسمعها تغنية مراراً، ومرر ثريغوراس يده إلى حقيبته ثانية بعد أن أعطى برونو أجره ولم يعطي إشارة أنه كان يتجاوب مع غناء لوفينيا ثم مدّ يديه الإثنتين نحوه وبدأ

يؤشر بأصابعه له بشكل يوحي بأنه يرغب استلام ما جاء من أجله. وأمسك بالكيس مذهولا وما لبث أن نهض من مكانه وبدأ يتمتم بصوت هافت باليونانية ثم إشتدت ملامحه وإنتصب كالمسمار وصرخ بإتجاه لوفينيا وقال:

- لوفينيا ... أريد أن أراك أنت فقط ... فقط أنتِ، لا أريد أن أرى شيئاً أخر غيرك ... لا شيء يستحق ... لقد رأيت لقد رأيت يا لوفينيا، بقلبي رأيت، وسأراك بعينيّ أيضاً، أنت من كان هناك في داخلي، أنت من قُدّر لها أن تنحت القلب ولم أكن أعرفك، أنت لوفينيا أنت.

ورمى الكيس وركض نحوها كانه نسي أنه ضرير ولشدة لهفته وفرحته لهذا الإكتشاف المثير تعثر بحجر كبير ووقع على الأرض على رأسه ولم يبدي أية حركة.

كانت لوفينيا قد توقفت عن الغناء تدريجيا في اللحظة التي بدا فيها ثريغوراس بحالة الرؤيا. وبقيت واقفة مكانها وكأن هذه اللحظة التي باتت هي تنتظرها منذ زمن بعيد، تماماً مثل ثريغوراس، بدأت بالشموخ السريع! ثم بالإنحسار المميت!

****

دورانوس عادت إلى سالونيك، ولم يعد الأخضر، ولم تعد لوفينيا كما كانت، وبدأت حياة ثريغوراس الثانية بالمفارقة! بالموت!

وقيل أن رجلاً وُجد على الشاطىء شبه ميت بعد وصول دورانوس إلى صقلية بيوم واحد، وقيل أنه كان قد قفز من السفينة بعد أن أحب فتاة كانت على متنها ولم تبادله الحب هي، بل أحبت إنساناً آخر! وقيل أن هذا الرجل قضى بقية حياته في صقلية يجول في شوارعها يسرد الشعر بالعربية والفارسية وبلغات أخرى غريبة حتى وُجد ميتاً في إحدى أزقتها وذلك بعد أن أصبح ملمحاً رئيسياً من ملامح المدينة. وبعد خمسة أيام من وصول دورانوس، كان الراعي فيتال يأخذ قطيعه إلى المدينة من الجبال الوعرة وعبر منطقة الراعي برونو ووجده مقتولاً قرب كوخه ودماء كثيرة على الأرض وبعض من أغنامه. ولم يكن لكلبه أثر في تلك المنطقة.

قالت صاحبة النزل السيدة سيلفيت بأن لوفينيا عادت قبل مغادرة دورانوس بيوم واحد ولم يكن بصحبتها أحد. وكانت تمسك بيدها عصا سيدها الضرير وحقيبته، وكان يبدو عليها التعب والإرهاق وملابسها كانت قذرة وملطخة بالطين. منهم من قال أن لوفينيا بقيت في النزل ولم تغادره وأن صاحبة النزل سيلفيا تحفظت عن سرد بقية القصة. ومنهم من قال أن لوفينيا رحلت مع دورانوس إلى سالونيك حيث سُمعت قصتها هناك من غجرية أخرى كانت تسرد القصة رقصاً وغناءً وبكاء.

عيسى بولص، شيكاغو

حزيران 1994